

الترتيل الكنسي

- ❖ ان الاباء الذين وضعوا الالحن كانوا و هم في الجسد كأرواح لطيفة سمت بالنعمة و حلقت في السماء ٠٠٠ و فيما هم في عمق استغراقهم في عذوبة المحبة الالهية ، و فيما هم ممثلون من الروح القدس بقوة و غزارة ، و فيما هم مائلون أمام عرش النعمة انطلقت ارواحهم تسبح ، و استحالت عقولهم الي صلاة ٠٠٠ اما افكار ذهنهم فتجسمت فكانت الفاظا و دونوها و نقلوها اليها في كل عصر ، و اما احساس روحهم و قلبهم فتجسمت و كانت الحان سلموها اليها في كل دهر .
- ❖ و من ذلك نري أن الحان الكنيسة المحبوبة تميزت عن سائر الالحن لا بروعتها فحسب بل بتوافق النغمة مع معاني الكلام - فلقد كان اللفظ و استيعاب الذهن لة اولا ثم كانت النغمة تابعة و خادمة و مؤيدة للمعنى .
- ❖ و لقد اهتم أبونا القديسون بالمحافظة علي ربط المعنى بالنغمة المناسبة له ، لكي يصبح لآتحادهما معنى حي يملأ الذهن و العاطفة معا - و لقد فطنوا الي ان البعض قد تستهويهم النغمة لروعته فيوجهون اليها اهتماما ينسيهم معاني الكلام ، فحذروا من الوقوع في هذا الخطأ و وضعوا ذلك القانون المشهور الذي ينص علي أن يكون اللحن و الصلاة " بحكمة لا بلذة " اي أن يوجة المصلي كل انتباهه الي معاني الكلام لا الي مجرد اللذة الموسيقية .
- ❖ ان اللحن الذي يردده المصلي لا يمكن ان يكون جميلا عميقا مؤثرا الا اذا استغرق مرده في معاني الكلام الذي يرتله فقد تسمع مرتلا أو كاهنا ينمق في نغماتة كما يخلو له فتشعر بلذة ، و لكنها لذة شبيهة بتلك التي تشعر بها من مغز دنوي ، و قد تسمع اخر يصلي بروحانية مع عدم اجادته للنغمة بمقدار الاول فتشعر بروعة النغمة التي تتفلك من الارض الي السماء - الا ان اجمل الالحن تسمعها من مرتل له موهبة من الله جميل الصوت يعي ما يقول روحاني .
- ❖ و ما دامت الكنيسة قد وضعت المعنى في المقام الاول ثم جعلت النغمة خادما و معينا لادخال المعنى الي النفس ، فينبغي أن نجعل ذلك نصب اعيننا في صلواتنا فأن ذهبنا الي الكنيسة او اشتركنا في ترديد لحن فليكن المعنى دائما هو موضوع تأملنا العميق و لنعلم ان الصلاة هي مخاطبة للنفس مع الله .
- ❖ أما عن الآلات الموسيقية التي تستعمل في الصلاة ، فيعلمنا المرنم في المزمور ان نسبح الله بكل الآلات ، فكل آلة موسيقية جميلة لا بد ان نكرسها لتسبيح الله الذي منة و لة كل الاشياء - غير انه و ان كان كل شيء يحل لي فليس كل شيء يوافقني و المزمور نفسة الذي ذكر فيه المرنم ان نسبح الله بالعود و المزمار و القيثارة ٠٠٠ الخ ، ذكر فيه ايضا ان نسبحة بالدف و الرقص - لكننا لانحسب ان الرقص الذي كان يجوز للاسرائيليين في بعض الاحتفالات كان يمارس في قدس الاقداس ، هكذا ان جاز لنا ان نرنم لله الحان

علي الالات الموسيقية في الحفلات الدينية فذلك حسن و مقبول و لكن للكنيسة
شانا اخر فهي قدس اقداسنا و روح الورع و الخشوع تتغلب فيها علي روح
السمر و لهذا اكتفت الكنيسة باستخدام الدف و التريانتو فقط لضبط النغم و
توحيد اللحن بين المصلين بمعنى ان يسير الجميع في ترديدهم للحن بسرعة
واحدة حتي يصلوا الي ان يسبحوا الله بصوت واحد و كانهم شخص واحد •
❖ و الان اسوق الي الجميع ، و لا سيما للمرتلين هذه النصائح ليذكروها عندما
يصلون في الكنيسة : -

١- اذكر او لا انك تصلي لا انك تغني فصل بورع و اعلم انك مائل لا في
حضرة بطريك او ملك عظيم لكنك تخاطب ملك الملوك و رب الارباب
وجها لوجه ، فاملا قلبك من معاني الكلام الذي تتلوه لان الله لا ينظر الي
الوجه بل الي القلب •

٢- اعلم ان الالحن ليست مجرد نغمات و انما هي صلوات فاهتم في
الحنك ان يرتفع قلبك الي الله فأنس انك وسط الناس و تذكر الله وحدة
الذي تتوجه اليه بالحنك و صلواتك •

٣- اترك الصوت العالي و ما يسمية المرتلون " الطبقة العالية " او الصوت
"المسررع" و لاسيما في الكنيسة و صل في خوف الله بصوت رزين يكاد
يجعله الورع غير مسموع •

٤- لا تجعل صوتك يعلو عن باقي المصلين و لا تسبقهم لكي تجعلهم
يعلمون انك قد حفظت القداس و اتقنت الالحن ••• فالكنيسة مكان للعبادة
و انكار الذات و ليست مكان للظهور و التفاخر - فاجعل صوتك يختفي و
يذوب و يختلط تماما بسائر الاصوات التي تصلي معك حتي يسمع الداخل
الي الكنيسة صوت الجميع كأنة صوت واحد هاديء رزين فهذا الصوت
وحدة هو الذي يدخل الي مسامع رب الجنود •

٥- استمع بكل نفسك الي ما يقوله الكاهن و الشماس و الشعب و لكن لا
تردد بصوت الا ما خصص لك فان كنت علمانيا فلا يتهويك اللحن الذي
يقوله الكاهن او الشماس فتخرج صوتك مرردا الكلام مع الكاهن او
الشماس فعندما يصلي الكاهن فليصمت الشعب صماتا تاما •

٦- اخضع لمن يقود اللحن و اجعل صوتك تابعا لصوته و اقل منة ، و ان
اختلفت طبقتك عن غيرك اصمت او اخضع نغمتك لطبقة غيرك حتي
ينسجم اللحن •

٧- اعلم ان افضل الالحن هو ما كانت الفاظة لاهوتية روحية قوية و
نغماتة معبرة عما تحوية الفاظة •

٨- يجب علي الشماس الذي يخرج ليتلو القراءات ان يكون قاريء جيد
يعرف أسلوب القراءة بالتشكيل و الاداء الصحيح و الوقفات يستطيع
التعبير عن الاحداث التي يتلوها و ان يراجع القراءات او الانجيل قبل
تلاوته و ان وقفت امامة كلمة فليسأل عنها و الا يخلط بين الكلمات التي
يخطيء فيها الكثيرون مثل ((يشتم ، يشتم - يخدم ، يخدم - كلمة الله ،

- كلمة الله ٠٠٠٠)) ، و لابد من وجود شخص يتابع الذين يقرؤون و يصلح لهم بصوت عالي و يعيدوا ما اخطأوا به .
- ٩- لابد من عمل جلسة بين الأب الكاهن و المعلم و الشماسة قبل كل طقس أو قبل مناسبة كنسية لأننا سنقف فيها أمام الله فلو أننا نحضر لاستقبال رئيس أو أسقف لاعدادنا كل شيء بما لا يدع اي مجال للخطأ امامة فما بالنا نحضر لاستقبال رب الأرباب و ملك الملوك ليس في الكنيسة فقط و انما في قلوبنا أيضا .
- ١٠- اعمل علي الاستماع الجيد للحن و القراءة العميقة لكلماتة القبطية و معانية العربية و اشعر بالمناسبة التي يعبر عنها حتي تستفيد منه
- ١١- الالتزام برتم موحد طوال اللحن اي ان يكون اللحن كلة بنفس السرعة فلا تبدأ الحن بسرعة جدا ثم تبطيء في منتصفه جدا ثم تعود تسرع مرة اخري و يفضل ان يكون القداس بنفس السرعة فلا تسرع في المجمع .

رئيس المرتلين في الكنيسة القبطية الارثوذكسية

- ❖ هذا هو " المعلم أو العريف أو المرتل " كما اعتدنا أن نسمية ، و انة لشخصية خالدة في كنيستنا ادي لها و ما زال يؤدي في صمته و تواضعة و انكساره اجل الخدمات ، و لوقت قريب كان معظم المعلمين من كفيفي البصر .
- ❖ و قد عرف ب " المعلم " نظرا لانه كان له في وقت ندرت فية دور التعليم مكان اخر غير مكانة بجوار الهيكل حيث كان يجلس خارج الكنيسة فيجتمع الية ابناء الاسر ياخذون عنة مباديء العلم بالقدر الذي كان العصر يحتاج الية فكان يعلم الحساب و القراءة و امتد اثره الي البيوت فعلم السيدات و الفتيات و قرأ علي يديه الانجيل و المزامير ، و انك لتعلم قيمة سيدة متعلمة في هذا العصر ، هذا بالاضافة الي الالحن التي كان يسلمها في صبر شديد للشماسة و المرتلين و افراد الشعب في وقت لم تكن فية الالحن مسجلة .
- ❖ أما التنظيم و الطقس الكنسي فان المعلم حفظة في صدره بقوة الذاكرة العجيبة التي وهبها الله له و لقد تعلم علي يديه أبائنا و نقل إليهم الاحترام العميق للكنيسة و التمسك بتعاليمها .
- ❖ تبصرة في الصباح الباكر و الظلام باق يسير قليلا قليلا بين صفوف المقاعد في الكنيسة الخالية حتى يصل الهيكل ليسجد أمامه ثم يتوجه لمكانة المعهود بجوار باب الهيكل ليبدأ صلاة القداس التي جلس وقتا كبيرا في بيته يعد و يرتب لها فقبل كل قداس تجد المعلم يراجع الحان المناسبة التي سيصلي بها في هذا القداس و يراجع أسماء القديسين الذين سنتفق ذكرهم مع إقامة هذا القداس ليقوم بعمل التمجيد المناسب لهم .
- ❖ في تاريخ الكنيسة القبطية أعداد كبيرة من المعلمين الذين بذلوا جهودا عظيمة في حفظ الألحان الكنسية ، و يجب علينا ألا ننساهم فقد كان لهم الفضل الأول

في نقل الألحان بدقة و أمانة للأجيال التي جاءت بعدهم ، و فيما يلي سأعرض نماذج لأشهر هؤلاء المعلمين .

الخورس

❖ و رئيس المرتلين هو القائد و المسئول عن الخورس داخل الكنيسة ، حيث يقف الخورس في صفين أحدهما في الجهة القبلية و الاخر في الجهة البحرية امام الهيكل ليقوموا بترتيل الالحن تحت قيادة .

❖ و هو يهتم بامور عديدة اثناء الطقس الديني و قد تعودنا ان نراة يصلح للاب الكاهن اذا اخطأ في القداس فيلتفت الية الاب الكاهن قائلا اخطات سامحني مما يجعل الشعب يتعلم من الكاهن روح الاتضاع و من المعلم يقظتة في متابعة الكاهن و ملاحظة سير الطقس بدقة ، كما انه مسئول عن توزيع الخدمات المختلفة بين الشماسة و يراعي في اختياره ان يكون متمتعا بصوت جيد و اذن موسيقية حساسة و ذلك لانه يقوم بقيادة باقي المرتلين و الشعب اثناء سير الخدمات الطقسية الكنسية .

❖ و للمعلم مكانة هامة في اداء الالحن و المردات اثناء الصلوات و بما انه لا يرتبط باعمال اخري خارج الكنيسة فذلك يساعد علي الاشتراك في صلوات السواعي التي تتم في اوقات مختلفة من الليل و النهار و تعتمد فرقة المرتلين علي اعتمادا كبيرا لما في صوته من دقة و وضوح بالاضافة الي ذاكرتة القوية و عدم نسيانة للالحن التي تسلمها هذا بالاضافة الي ان معظم المعلمين تعلموا الالحن منذ الصغر مما جعلهم مرتبطون بالكنيسة عالمون بطقوسها و بالتالي عقيدتها .

❖ و قد حدث ان زار عالم موسيقي اجنبي مصر ، فاسمعة بضعة الحان بالقبطية التي لم يكن له دراية بها و طلبوا منه تخمين المناسبة التي يتحدث عنها كل من هذه الالحن فاستطاع من خلال اللحن ان يذكر المناسبة فعلا .

❖ الالحن الطويلة تسمح بوقت اكبر للتأمل في المعني و الاحساس باللحن

❖ الالحن الكنسية هي توسلات و ابتهالات و تسابيح ترفع الي الله القدوس استدرارا لبركاته و نعمائه و التماسا ارضائه و شكرا له علي عطاياة الجزيلة بها تتاجي قلوب المسيحيين ربها و علي اجنتها ترتقي الافكار الي المراتب العلوية و للالحن الروحية المضبوطة تأثير شديد في النفس لانها تنفث الي اعماق القلوب و تثير فيها كل عاطفة منحها الخالق لخلائقة الناطقة

❖ بمعاينة الصنوج القديمة المحفوظة في اديرتنا القبطية نجدها ضخمة و ثقيلة تحدث صوتا مزعجا باستخدامها استخداما متصلا للايقاع الموسيقي بها مع اللحن مما يؤكد انها كانت تستخدم لتببية المرتلين الي تغيير النغم حتي يقولوا بصوت واحد .

- ❖ و يضيف المعلم اثناء اداءة للحن بعض الزخارف المرتجلة بهدف تجميل اللحن و التعبير عن عمق معانية ، و لكل معلم اسلوبه الخاص في زخرفة هذه الالحن حسب احاسيسه و امكانياته الصوتية خاصة وان هذا الاسلوب في الزخرفة ينبع من وجدانة و شعورة بتاثيرالحن داخله .
- ❖ و لا يمكن ان ان يتفق مرتلان او اكثر في اداء لحن واحد بنفس الزخارف كما ان المرثل الواحد عند تكرارة لترتيل لحن معين لا يمكنه ان يكرر نفس الزخارف بالضبط .
- ❖ لم يقصد باستعمال الناقوس التعبير عن الفرح و السرور بل انة يساعد فقدعلي ضبط الايقاع و توحيد الاداء و المحافظة علي الالتزام بسرعة واحدة
- ❖ موسيقي و الحان الكنيسة القبطية الارثوذكسية تعتبر موسيقي تقليدية لانها وصلت الينا عن طريق السمع فقط و هي تراث لنا من ثقافة عليا كانت في حضارة مضت .
- ❖ و قد قال سقراط المؤرخ الكنسي ((المتوفي عام ٤٤٠م)) ان القديس اغناطيوس الذي اقيم اسقفا علي انطاكية و استشهد عام ١٠٧ أمر المؤمنين ان يكونوا جوقتين منهم ليرتلوا أناشيد الثالث الاقدس و قد نقلت ذلك عنة الكنائس جميعا .
- ❖ و جاء في قوانين مجمع اللاذيقية الاقليمي الذي عقد عام ٢٤٦م ((لا يجوز أن يرتل في الكنيسة الا المرتلون القانونيون الذين يصعدون علي المنبر و يرتلون بدفاترهم و كتبهم و لم يكن الترتيل او قراءة الاسفار الدينية من حق الشمامسة بل كان يتلوا افراد الشعب بدليل ان القانون رقم ٢٦ للرسل اجاز للمرتلين ان يتزوجوا بعد رسامتهم للترتيل في الكنيسة في حين ان الزواج كان محرما علي الشمامسة بعد وضع الايدي عليهم .
- ❖ و يرجع اصل وضع الترانيم و الغناء في الكنيسة الي السيد المسيح له المجد و الي الرسل أنفسهم بدليل ما جاء في رسائلهم : -
 - ١- مكلمين بعضكم بعضا بمزامير و تسابيح و اغاني روحية مترنمين و مرتلين في قلوبكم للرب (أف ٥ : ١٩) .
 - ٢- لتسكن فيكم كلمة المسيح بغنى و انتم بكل حكمة معلمون و منذرون بعضكم بعضا بمزامير و تسابيح و اغاني روحية بنعمة مترنمين في قلوبكم للرب (كو ٣ : ١٦)
- ❖ و بناء علية كان مسيحو الاجيال الاولي يستعملون الترانيم و الالحن و يغنون بها للرب في اجتماعاتهم الدينية فيجيب الكاهن بصوت جهوري كما يشهد بذلك القديس كبريانوس أسقف قرطجنة ((من عام ٢٠٠ - ٢٥٨م)) في مؤلفة عن الصلوة ، و القديس أيرونيموس ((من عام ٣٣١ - ٤٢٠)) في رسالته الي اهل غلاطية التي يقول فيها ((ثم عين للتراتيل جماعة اطلق عليهم أسم ((خورس)) أي جوقة المرنمين او المرتلين .

التراتيل

❖ قد قال القديس غريغوريوس العجايبى أ سقف قيصرية عن استاذة العلامة اوريجانوس رئيس مدرسة اللاهوت القبطية بالإسكندرية (من عام ١٨٥- ٢٥٤م) انه كان يعلمهم مع اللاهوت الفلسفة و علم الطبيعة و المنطق و الهندسة و الرياضة و الفلك و الموسيقى .

❖ الغرض من الألحان هو اثاره حمية المؤمنين كما تثار حمية الجنود في ساحات الحرب و ميادين القتال بالطبول و الزمور المختلفة التي تشجعهم علي مقابلة الاهوال بجأش ثابت و حنان رابط فأن المؤمنين محاطون بأنواع شتي من الاعداء الروحيين الساهرين علي اقتناصهم فأذا لم يكونوا علي اهبة الاستعداد لمناوأة الاعداء الروحيين ضاع جهادهم و صبرهم عبثا و بما ان طول السهر يسبب الملل او الفتور احيانا .

❖ و قد وضعت الكنيسة الألحان و الترانيم الروحية لتكون من وسائل التنبيه و وسائل التشجيع للمؤمنين و لتخلق فيهم الغيرة و تجدد الحماس الروحي في صدورهم و لانعاشهم و اضرام نار الشوق و الهيام في العبادة لفاديتهم .

❖ قال القديس باسيليوس ((ان الترانيم هي هدوء النفس و راحة الروح و سلطان السلام و يسكت عواصف حركات قلوبنا و يخمد هيجان المتهيجين و يرد الفاجرين و ينشيء الصحبة و ينفي الخصام و يصلح الاعداء و من يقدر ان يحسبه عدوا له و هو قد اشترك معه في تقديم التسبيح امام عرش الله فالترنم يطرد الارواح الشريرة و يجذب خدمة الملائكة و هو سلاح في مخاوف الليل و راحة في الاتعاب اليومية الشاقة و انة للطفل حبيب و محام و حارس و للرجل اكليل مجد

❖ ان الترتيل الكنسي علي الاصول الموسيقية و بالأحان موافقة و بتأليف الانغام و باتفاق الأصوات و رخامة الصوت و بلذة الوزن و بخشوع و وقار كل ذلك يدخل بدون تكليف في نفس المصلي و يحرك فيه كل الصفات المقدسة السامية و يرفع جميع حواسه و افكاره و تأملاته الي الله داعيا اياه الي روضة الجهادات الروحية و عندما يشنف أذان المصلي الواقف بكل خشوع و وقار ترتيل شريف و مؤثر كهذا فأنة يترفع عن كل الاهتمامات الدنيوية و يلتصق بكلية مع مصاف سكان السماء حيث لا حزن و لا وجع و لا تنهد بل فرح و لذة يعجز القلم عن وصفهما .

ان المصلي الواقف بخوف الله و حينما يسمع الاناشيد الالهية الحسنة الانغام المؤثرة و التسابيح الحسنة الايقاع التي تطرب النفس تارة يتحرك و يتاثر و تارة يبكي و ينتهد بمرارة علي خطايا امام المصلوب و تارة يتهلل بالروح محتفلا بالنصرة علي الخطية و الموت مع الناهض من القبر .

ملاحظات

- ١) المرتل :- كلمة اطلقها بعض المعلمين علي انفسهم ليشيروا الي انهم هم الذين يقودون الشعب و الشمامسة في الكنيسة بدلا من كلمة "معلم " الا ان كلمة مرتل هي كلمة عامة تطلق علي اي شخص يقوم بالترتيل في الكنيسة و انما الاصح هو " رئيس مرتلين " .
- ٢) كان المنبر الخاص بالمرتلين يقام اولا وسط الكنيسة الي جانب الباب المتوسط للهيكل ثم جعل لهؤلاء المرتلين محلان خاصان عند صرفي الهيكل محاطان بسياجين و لا يزال في الكنائس القبطية القديمة جزأً معروفان باسم الخورس الجواني و الخورس البراني و قد اطلق عليهما هذان الاسمان من باب تسمية المكان بأسم المكين .
- ٣) " خورس " كلمة يونانية معناها " فرقة المرتلين " .
- ٤) المعروف ان فقد حاسة البصر يقوي حاسة السمع و الذاكرة .

+++++

المراجع

+ الكتاب المقدس كمرجع اساسي لكافة المقالات .

+ مناهج الأكليريكية " الكلية الأكليريكية " مرجع اساسي لكافة المقالات .

+ بعض المجالات و الكتب القبطية الأخرى " من تراث الكنيسة " كمرجع اساسي لكافة المقالات .

+ مجلة " الرجاء " كمرجع اساسي للمعلمين و مقالاتهم .

+ الأترنت و المواقع القبطية الأرثوذكسية المختلفة .

+ الشماس الأكليريكي : المَعْلَمَ : ماركس " و . ف . ب " كمصدر اساسي للمقالات

يمكن الرجوع له في حال التأكد من صحة المراجع و المقالات المذكورة .

+ وذلك من خلال كاتب المقال فلدية كافة تفاصيل الموضوع